

الإربعاء 2011-08-03

### 1433- "ماذا حدث؟" "ماذا حدث؟" بعد 25 يناير؟

يتكرر هذا السؤال في معظم، أو كل وسائل الإعلام مرئية ومسموعة ومطبوعة: ماذا حدث من تغير في الشخصية المصرية؟ ماذا حدث للشباب بعد الثورة، ماذا حدث في منظومة القيم بعد 25 يناير، فأكتشف أن إجاباتي - إذا لم ينجح الاعتزار- تتكرر هي هي حتى خجلت من نفسي، قلت أوجزها وأجمعها، وللينتق منها من شاء كما شاء، وهو هي ذي:

**أولاً:** لا يوجد تغير في الشخصية عموماً أو في القيم أو في المجتمع بين يوم وليلة، ولا خلال عدة أسابيع، أو شهور، وربما بضع سنين.

**ثانياً:** إن التغير الذي يظهر في لحظة بذاتها ليس نتيجة مباشرة لما "حدث" في هذه اللحظة، أو حولها، ولكنه إعلان عن تراكم ما حدث عبر سنوات أو عقود أو قرون، ثم ظهر هكذا الآن

**ثالثاً:** إن ربط هذا التغير بسبب محدد في الماضي، أو إرجاعه إلى سبب معين في الحاضر هو عادة ربط خطى مختزل ظاهري زائف، فدائماً يوجد عدد من الأسباب تتفاعل مع بعضها البعض، لعدد من السنين، في عدد من الناس، حتى يظهر ما يمكن أن يظهر في لحظة تغير نوعي يُعلن عنه حين تسمح الظروف المحيطة له بالظهور.

**رابعاً:** إن هذا التغير الذي يظهر في لحظة النقلة الكيفية إنما يعلن الوصول إلى "عتبة" تختم هذا الإعلان حسب قوانين طبيعية واجتماعية وتطورية بقائية،

**خامساً:** إن أبسط مثال لشرح ذلك هو تغير حالة الماء إلى جبار عند درجة حرارة مائة، فقبل هذه الدرجة بدرجة واحدة يكون الماء ماء، أي عند درجة حرارة 99 درجة مئوية، وطبعاً 98 درجة مئوية، ناهيك عن درجات أقل فأدنى مثل 78 أو 54 أو 23 أو 11 عند كل هذه الدرجات يتبلل الماء ماء، أما إذا تمادي العد التنازلي إلى درجة حرارة صفر، فإنه بمثابة تغير نوعي في الاتجاه الآخر حين يتحول الماء إلى ثلج، وعلى ذلك فليس درجة واحدة (من واحد إلى صفر، أو من 99 إلى مائة) هي المسئولة عن هذا التحول إلى جليد أو بخار على التوالي،

ولكن "الوصول" إلى هذه الدرجة بعد رحلة طويلة من التسخين أو التبريد هو المسؤول. على نفس القياس يكون التدرج في تغير الشخص، أو المجتمع أو منظومة القيم في مجتمع ما. فكيف بالله عليكم تطرح هذه الأسئلة بكل هذا الإلحاد والتواتر، وتنظر إجابة وافية مفيدة؟ ولكن العيب ليس فقط في طرح الأسئلة، وإنما في المبادرة بالإجابة عليها بشكل يختزل جاهز سواء من المتهدين الانطباعيين، أو حتى من بعض المختصين محسن نية.

25 بناير، الثورة: ماذا حدث للمصريين؟ ماذا حدث للشباب؟ ماذا حدث للشعب؟ ماذا حدث للقيم؟ ..... إلخ من حقنا أن نسأل، وأن نلح في السؤال، ولكن ليس من حقنا أن يستدجنـا السؤـال طـويـلاً بـعيـداً عـنـ المـنـطـقـ السـلـيمـ وـعـنـ فـهـمـ طـبـيـعـةـ الاـخـلـافـ الثـقـافـيـةـ، وـتـبـاـيـنـ الثـقـافـاتـ الفـرـعـيـةـ، وـالـفـنـانـاتـ الـعـمـرـيـةـ، وـالـطـبـقـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ (ما قد يحتاج إلى تفصيل لاحق)

садساً: إن الإعلام أصبح مساهمًا في الإجابة عن السؤال أكثر منه مستفسراً، سواء كان أعلاماً موضوعياً، أو إعلاماً مغرياً، سواء كان مركزاً متسطاً، أو غير مركز متبايناً، وذلك حين يعرض انتقائياً لقطات ختارة من أماكن معينة لتصوراته لما حدث ويحدث

البديل لكل ذلك بعيداً عن دروس المنهج المعقّدة، والتي قد لا يلتزم بها كثير من الباحثين المنهجيين، هو أن نركز على حدث بذاته، أو موقع بذاته، أو ظاهرة بذاتها، ويا حبذا لو تكون مكررة في ظروف متماثلة تقريباً، أو قريبة من التماثل، وننظر فيها بدقة مناسبة من خلال أبعاد محدودة، كما وكيفاً، شكلاً وموضوعاً، عملياً ومنهجاً، ثم نقارن نفس الظاهرة وكيف كنا نتعامل معها قبل التغيير المزعوم أو الحقيقي .

قيل وكيف كان ذلك؟ مثلاً؟

قفز إلى قلمي الآن أن تكون احتفالية، أو بكائية "الثانوية العامة" هي مجال المقارنة،

ولهذا حديث أكثر تفصيلاً